

واقع اللغة العربية وقضاياها في الحضارة الإسلامية الانتشار والتأثير والتعدد

The reality of Arabic language and its issues in Islamic civilization: spread, influence, and multiplicity

أ.د. مصطفى عطية جمعة¹*

الجامعة الإسلامية مينيوتا-الجامعة الأمريكية المفتوحة

أستاذ محاضر بكلية التربية الأساسية - الكويت

mostafaateia@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-00-00 تاريخ القبول: 2024-05-18 تاريخ النشر: 2024-06-01

ملخص البحث

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث قضية التعدد اللغوي وأبعادها في الحضارة الإسلامية، وقد ارتكز الباحث فيها على المنهج الوصفي التحليلي، مع المنهج التاريخي الحضاري. أما خطة البحث فجاءت في أربعة محاور، وهي: التعدد اللغوي وتأثير النموذج الحضاري، وجهان للتعدد اللغوي الحضاري، وتأثيرات اللغة العربية حضارياً، والنموذج اللغوي الحضاري والموقف من التعدد اللغوي.

الكلمات المفتاح:

التعدد اللغوي- الحضارة الإسلامية- وجوه التعدد اللغوي - أثر اللغة حضارياً- النموذج اللغوي الحضاري.

This research deals with the issue of multilingualism and its dimensions in Islamic civilization. The researcher relied on the

* المؤلف المرسل: أ.د. مصطفى عطية جمعة

descriptive and analytical approach, combined with the historical-cultural approach. The research plan included four axes: multilingualism and the influence of the cultural model, two aspects of cultural multilingualism, the effects of the Arabic language culturally, the cultural linguistic model and the position on multilingualism.

Keywords: Multilingualism - Islamic civilization - Faces of multilingualism - The cultural impact of language - The cultural linguistic model.

مقدمة

المستهدف في هذه الدراسة قراءة الواقع اللغوي في الحضارة الإسلامية، والتي كانت اللغة العربية فيه هي اللغة الحضارية الأولى، وامتد تأثيرها اللغوي والقاموسي والكلامي والكتابي إلى بقية اللغات في المناطق الشاسعة التي شملها العالم الإسلامي.

لم تكن هناك صراعات بين العربية واللغات المحلية، بل انتشرت اللغة العربية، وعمّ تأثيرها على الشعوب الإسلامية، نظرا لنفوذها الديني ثم العلمي والحضاري.

في ضوء ذلك تأتي إشكالية البحث، والتي يمكن بلورتها في سؤال مفاده: كيف كان الواقع اللغوي على مستوى تأثير العربية حضاريا، وعلاقتها باللغات المتعددة في العالم الإسلامي؟ ومن خلال هذا السؤال، تأتي خطة الدراسة، والتي تتمحور في أربعة محاور، وهي: التعدد اللغوي وتأثير النموذج الحضاري، وجهان للتعدد اللغوي الحضاري، وتأثيرات اللغة العربية حضاريا، والنموذج اللغوي الحضاري والموقف من التعدد اللغوي.

وهي محاور تسعى إلى قراءة الحضارة الإسلامية لغويا، وأثر اللغة العربية حضاريا في اللغات المحلية الأخرى، وهو أثر لم يؤد إلى صراع، وإنما كانت العربية لغة العلم والحضارة، وكانت اللغات المحلية لغة التواصل اليومي، ثم غزت مفرداتها كلمات وتعبيرات كثيرة من اللغة العربية.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في قراءة الواقع اللغوي في الحضارة الإسلامية، والمنهج التاريخي الحضاري من أجل التنقيب عن أثر العربية في اللغات الأخرى، وأثرها الحضاري في الشعوب المسلمة.

آمل من الله سبحانه أن تكون هذه الدراسة بوابة ومدخلا لدراسات أخرى، تبحر في تاريخ العربية حضاريا، وتاريخ الأمة ثقافيا، وتاريخ الشعوب المسلمة لغويا.

التعدد اللغوي وتأثير النموذج الحضاري:

ثمة سؤال يطرح نفسه مفاده: ماذا عن واقع الحالة اللغوية في الحضارة الإسلامية؟ والمقصود بهذا السؤال الوقوف على اللغات المتداولة في أقاليم الحضارة الإسلامية، فالجزيرة العربية كانت موئل اللغة العربية، ولدعوة الإسلام، وبعد الفتوحات، هاجرت القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة حاملة الإسلام والعربية، واستقرت بها، وامتزجت مع شعوب هذه البلدان، التي كانت تتكلم بلغات أخرى، ومن ثم أقبلت على تعلم العربية، بعد إسلام غالبية سكانها. فكانت الحالة اللغوية في أقطار العالم الإسلام تشتمل على تعددية لغوية قوامها التحدث باللغات المحلية بوصفها لغات الحياة والتواصل اليومي، جنباً إلى جنب مع العربية بوصفها لغة العلم، وأيضا لغات أخرى كتبت بها علوم الحضارة مثل الفارسية والتركية، وفي جميع الأحوال كانت القاعدة السائدة من قبل المسلمين في التعامل مع اللغات الأخرى غير العربية؛ أنها تعبر عن آية ربانية في تعدد الألسنة والأعراق، فلم يكن هناك صراع ثقافي أو هوياتي، فاللغة العربية كانت بمثابة اللغة الوطنية الآن، التي تحمل الإحساس بالهوية، كما أنها تدل على نشاطهم، وتعبر عن وجودهم⁽¹⁾. مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾، (الروم، 22).

ويفسر الشوكاني هذه الآية عبر ربطها بمفهوم الإعجاز الإلهي في خلق الكون، الذي يتوجب على المسلم تأمله ليزداد يقينا بعظمة الله ومعجزاته، يقول: (ومن آياته خلق السماوات والأرض) فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة التي هي أجرام السماوات والأرض، وجعلها باقية ما دامت هذه الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين؛ لهو قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم. و(اختلاف ألسنتكم) أي لغاتكم من عرب وعجم، وترك، وروم وغير ذلك من اللغات، (وألوانكم) من البياض والسواد والحمرة والصفرة.. مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد،

وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون (إن في ذلك لآيات للعالمين) الذين هم من جنس هذا العالم من غير فرق بين بر وفاجر⁽²⁾.

مما يحتّم على المسلمين الإقرار أن اختلاف الألسنة دافع لاحترام ناطقيها، فهم إخوة المسلم في البشرية، والاحترام يعني عدم تحقير اللغة، وتقدير ثقافة متكلميها، وعدم إرغامهم على التحدث بلغة أخرى. أما إقبال المسلمين وغير المسلمين على العربية فقد تم بدافع ديني، وعلمي، ولا يعني أبدا التخلي عن اللغة المحلية، بل كانت اللغات المحلية لغات تواصل يومي ومجتمعي، أما العربية فهي لغة تعبد وتعليم.

إن إتقان اللغة العربية كان متطلبا ضمن متطلبات الوعي الحضاري، الذي يرتبط بالفرد المسلم - وأيضا غير المسلم- ضمن سعيه لتجسيد تطلعاته وتحقيق طموحاته في التعلم والنبوغ، كما يجسد حالة المجتمع ورغبته في التطور والارتقاء على صعد مختلفة، تظهر في السمات الحضارية، التي تشكل الوعي الجماعي. لذلك تروّج الحضارات لنفسها بواسطة اللغة في أشكالها المختلفة: المرئية، والمكتوبة، والمسموعة. فوضعية اللغة لا تنفصل عن وضعية مستخدميها، من حيث حضورهم وقوة تأثيرهم، على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي. كما ترتبط قوة اللغة بمدى قدرة أفرادها على جعلها أداة إبداع في المقام الأول، وبالخصوص ربطها بمنجزات العلم، الأمر الذي يحتم دراسة تجليات اللغة علميا وإبداعيا⁽³⁾، والنظر فيما تحمله ثقافيا وفكريا.

ونتوقف عند مصطلح "الوعي الحضاري" والذي يرتبط بذات فردية وجمعية، فالذات الفردية هي ذات كل منتم وفاعل في مسيرة الحضارة، التي تسعى إلى تطوير نفسها، ولا سبيل أمامها إلا إتقان اللغة الحضارية المعتمدة أو الغالبة، وتحتوي في الوقت نفسه لغات أخرى ساهمت في المنجز الحضاري. إن قوة اللغة تكمن فيما تحمله من إبداعات ومؤلفات وفنون، فهي وسيلة حضارية، تعبر عن الوعي الجماعي من جهة، ويكون انتشارها في العالم علامة على علو شأنها.

وهناك **وجهان للتعدد اللغوي**، سلبي وإيجابي؛ الوجه السلبي عندما تكون الدولة الواحدة لها لغات متعددة، تنتمي لأعراق مختلفة، ويتعصب كل عرق للغة، وتصبح الساحة اللغوية مليئة بالصراعات اللغوية والثقافية. وهو ما نراه جليا في الأقطار التي تعرضت للاستعمار في العصر الحديث، حيث نافست لغة المستعمر اللغات الوطنية، وفرض المستعمر لغته، وثقافته، ونظم تعليمه،

وسعى لإماتة اللغات المحلية وثقافتها، فكانت النتيجة ثنائية لغوية: لغة الدولة المستعمرة حتى بعد رحيل جيشها، وتسمى اللغة الناشئة (المعتمدة في الكتب والإصدارات والمراسيم)، ولغة القطيع، التي هي اللغة المحلية. والمثال على ذلك دولة الأكوادور، يعيشون صراعا لغويا، فيها ثلاث لغات محلية عرقية، أما اللغة الرسمية فهي اللغة الإسبانية، وللأسف أضحت وسيلة التواصل بين شعب الأكوادور، بعدما قطع المستعمرون أوصالهم اللغوية، وهي أيضا لغة الخطابات الرسمية وعلى الصعيد الخارجي، وباتت المشكلة الوطنية كيفية المحافظة على اللغات المحلية⁽⁴⁾، إزاء الهيمنة اللغوية الاستعمارية في التعليم والإعلام والاتصال الدولي وأيضا المحلي.

أما الوجه الإيجابي للتعدد اللغوي، فهو يرتبط بالأقطار التي تشعر بحاجتها إلى الآخر الحضاري، كي تستزيد من حضارته، من خلال إجادته، وتعلم علومه، وترجمة كتبه؛ على نحو ما حدث في تجربة الترجمة في الحضارة الإسلامية، فقد انتعش تعلم اللغات الأخرى، لاستشعار العلماء المسلمين بحاجتهم إلى حضارات الآخر، دون الشعور بالدونية الحضارية، أو تغلب حضارة الآخر على حضارة المسلمين، فكانت الترجمة من موقع القوة والندية. وكانت تعددية اللغات ظاهرة طبيعية ومقبولة، دون صراع أو استحقار، في أقطار العالم الإسلامي، فكانت العربية لغة العلم، واللغات المحلية هي لغة التواصل، وبمرور الوقت سادت العربية علميا، ولم تضعف اللغات المحلية، بل قويت، وأثريت بمفردات من العربية، وكانت حاضرة في الترجمة منها إلى العربية.

وفي هذا الصدد، يؤكد بشير خليفني على أن بناء الحضارة في مقامه الأساس؛ ينطلق من قدرة المجتمع، على إنشاء لغة جماعية كشرط أولي للعمل الجماعي، إذ القدرة على الاتصال بين الفاعلين الاجتماعيين أكثر الأولوية وأهمية للفعل الحضاري من عمل الآلات، بيد أن بنية اللغة الجماعية بوصفها مدخلا للوعي الحضاري؛ تقوم في أصلها على خلفية التنوع والتعدد، بما يعني استمرارية التواصل الاجتماعي المحلي، وتيسير أسبابه بلغات محلية مختلفة، مع انفتاح على اللغة المشتركة⁽⁵⁾، وبذلك يمحى الصراع اللغوي، الذي يحمل هيمنة من جهة لغة عليا يتم فرضها قسرا، ولغة محلية يتم احتقارها ونفيها غصبا، فلا بد أن تكون اللغات المحلية مساهمة علميا وفنيا في مجرى اللغة الحضارية المشتركة، وهي النقطة التي يركز عليها غوستاف لوبون في حديثه عن سياسة العرب الفاتحين، فيؤكد أن الغزاة السابقين للأمم لم يستطيعوا فرض لغتهم على الأمم المغلوبة (مثل العراق وفارس ومصر)،

واستطاع العرب فعل ذلك، حتى صارت اللغة العربية عامة في جميع البلدان التي استولوا عليها، وحلّت محل السريانية واليونانية والقبطية والبربرية.. إلخ، وكان للغة العرب ذلك الحظ زمنا طويلا، حتى في بلاد فارس، على الرغم من يقظة الفرس، ولكن ظلت العربية لغة أهل الأدب والعلم، وكتب الفرس لغتهم بأحرف عربية، وكتب ما عرفته بلاد فارس من علم الكلام وعلوم أخرى بلغة العرب. ولغة العربية في هذا الجزء من آسيا شأنٌ كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى، وانتحل الترك أنفسهم وهم الذين قهروا العرب؛ الخط العربي، ولا تجد في تركيا إنسانا على شيء من التعليم، لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة⁽⁶⁾، فقد كتبت التركية بأحرف عربية، وصيغت مؤلفات علمائها بالعربية.

شهادة غوستاف لوبون فيها إشادة، وسوء فهم، أما الإشادة فهي إقراره أن العربية انتشرت مع الفتوحات العربية، وصارت لغة الثقافة والتعلم والحضارة، وقبلت بها شعوب ذات حضارات راسخة. أما سوء الفهم، فهو إصراره على تجاهل أثر الإسلام الديني والثقافي والحضاري، والنظر إلى القضية في إطار هيمنة العرب -بوصفهم جنسا- على شعوب وأعراق أخرى، وهو ما يفسر تعجبه من قبول الفرس ذوي الحضارة الراسخة للغة العربية كتابة وتأليفا، وقبول الأتراك وقد حكموا شعوب مسلمة بما فيهم العرب، بالحرف العربي لكتابة لغتهم، وبالعربية كلغة العلم والاطلاع. القضية ببساطة أن الإسلام كان مظلة شاملة للأمم وأعراق وثقافات، ارتضت به دينا وبالعربية لغةً.

كما أن لوبون يعبر عن اندهاشه من ثراء اللغة العربية، واستفادتها من اللهجات التي اتصلت بها، فهي رحبة، تقبل التعابير الجديدة، والدليل على ذلك معجم ابن سيده (ت1065)، المشتمل على عشرين مجلدا⁽⁷⁾. فالعربية مرنة في الاشتقاق والتعريب وقبول دخول بعض الألفاظ الأعجمية، وأيضا انفتحت على اللهجات التي انبثقت منها، وما أحدثته من تعبيرات وألفاظ جديدة، بحكم تفاعل الشعوب مع التطور الحضاري، واختلاف البيئات، وتنوع الثقافات.

أما عن تأثير اللغة العربية في الحضارات الإنسانية، ففي الحضارة الغربية مثلا تذكر المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، تقدم أمثلة على تأثير العربية بوصفها لغة حضارية فتذكر أن الغرب يستخدم حتى الآن الأرقام العربية التي نقلها العرب عن الهند، وزادوا عليها، حيث استطاع الهنود أن يجعلوا لكل رقم شكلا، بعيدا عن النظام العقيم في تكوين الأعداد والرموز، فأوجدوا لكل رقم شكلا

واحدا يدل عليه، ويكتب به، وهو يكتسب قيمة تبعا لموضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف، وكان ذلك في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، عندما أحضروا له كتابا هنديا بعنوان: سند هند، نقلوا منه الأرقام الهندية، وتم نشرها عربيا ثم أوروبا⁽⁸⁾، في شهادة على دور العربية كوسيط حضاري، وفي دلالة على انفتاح العقلية العربية المسلمة على علوم الآخر.

كما كان للعربية تأثيرها في عشرات المفردات التي دخلت اللغات الأوروبية، وأبرزها اللغة الإسبانية التي تأثرت بالعربية بشكل مباشر وكبير، خاصة في الزراعة وأدوات الري، مثل طاحونة، وعجلة مائية، ولفظة أسقيا (قناة مائية). وقد ثبت للباحثين اللغويين الأسبان أن تأثر اللغة الإسبانية باللغة العربية عميق جدا بسبب انتشارها الواسع في الأندلس وبعض المقاطعات الإسبانية على مدى ثمانية قرون تقريبا إبان الحكم العربي الذي بدا مع دخولهم إليها سنة 711م واستمر حتى بعد خروجهم منها سنة 1492م، ولقد شهد التاريخ أن العرب أسسوا حضارة في شبة الجزيرة الأيبيرية، تجلت في انتشار العلوم والفنون وال عمران كما في الصناعة والزراعة والهندسة المعماري، إبان تلك القرون الغابرة مما جعل الأندلس آنذاك ومركز إشعاع في أوروبا كلها ومحجة لطالبي العلم فيها⁽⁹⁾

ويعترف غوستاف لوبون بأن اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد أَلَف كل من: دوزي، وأنجلمن معجما في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية. وذكر أنه من الطبيعي أن تقتبس فرنسا وإيطاليا من العرب، الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن الميلادي، وأكثر الاصطلاحات البحرية اللاتينية مقتبسة من العربية، كما أن البوصلة اختراع عربي وليس صينيا، واقتبست الجيوش الأوروبية ألقاب الجيوش العربية وكذلك وغى الحرب، كما أن استعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف كان من العسكرية العربية. وأُخِذَت عن حكومة بغداد وقرطبة تعابير إدارية، مثل الديوان والبازار وقُلْد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسية العرب في كل شيء، فأخذوا اصطلاحات الصيد، وكذلك اصطلاحات العلوم والاختراعات في الفلك والكيمياء. وينفي لوبون ما ذكره أحد المؤرخين الفرنسيين أن إقامة العرب في جنوب فرنسا لم تسفر عن أثر، لا في اللهجات، ولا في اللغة، ويتعجب من ترديد بعض المثقفين لهذا الرأي⁽¹⁰⁾.

وهناك مفردات شائعة في عموم اللغات الأوروبية، وتسربت في الأساس من اللغة اللاتينية التي تُرجمت بها المراجع العربية في القرون الوسطى، ومنها: الموسلين وهو نسيج قطني رقيق، وسار اسنت،

ودمسق والتفتة، وهو نسيج الحرير، وتابي وهو نسيج من الحرير المموج أو المخطط. وفي المسائل البحرية: أرسينال وهي دار الصناعة، وأدميرال وهو أمير البحر، وفي الكيمياء التقنية: الإنبيق وهو أداة كيميائية للتقطير، والكحول والقالي وهو فلز قلوي. في الورق: ريم وتعني ماعون ورق. وفي الطعام: شربت وهو الشرابات⁽¹¹⁾، وغيرها، فيما يدل على توغل مفردات الحياة المدنية بكل مظاهرها من أطعمة وأشربة وملبوسات في تفاصيل الحياة الغربية.

وتقرّر زيغريد هونكه بذلك بقولها: "في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين -والتاريخ شاهد على ذلك- في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكما أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محبة إلى النفوس. وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوما من الأيام قائما كالحا باهتا، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعطر العابق، وأحيانا باللون الساحر، وزادته صحة وجمالا وأناقة وروعة"⁽¹²⁾. في دلالة على رقي المائدة العربية.

والتأثير يمتد شرقا، في القارة الهندية، حيث تواصل العرب مع شعوب الهند عبر التجارة، وذلك منذ القرن السادس الميلادي، ثم وصلت إليها الفتوحات، وانتشرت فيها الثقافة العربية، نتيجة لإقبال الهنود على اللغة الفارسية، التي ظلت متداولة في بلاد الهند والسند طيلة سبعة قرون، وكانت اللغة الفارسية عربية الفحوى وإسلامية المرجعية، نتيجة تأثر الفرس بالإسلام ديناً وثقافة وحضارة، ومن ثم تسربت الألفاظ العربية إلى اللغة الهندية، حاملة الثقافة الإسلامية، ولكن هذا الاتصال مع حضارة الهند لم يكن صراعاً، بل كان اتصالاً حضارياً، تضافياً، فكما أعجب الهنود بالفارسية والعربية؛ زودوا الثقافة العربية في المقابل بروافد جديدة، من خلال تيسير علوم الهند وترجمتها إلى العربية، وهو ما أحدث صدمة لغوية لدى العلماء العرب، فكان لزاماً عليهم مواجهة المصطلحات والمفردات الوافدة الجديدة بتطوير العربية، وتحديث قواميسهم ومعاجمهم وعلومهم، خاصة أن أقاليم الهند فيها نباتات وحيوانات وأمكنة وأشياء لا قبل لبيئة العرب والمسلمين بها، ولكن المشكلة تم حلّها من خلال العربية نفسها، التي تميزت بالمرونة، والقدرة على استيعاب الجديد من ألفاظ الحضارة، من خلال التوسع في مدلول الكلمات العربية، أو نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى اللغة العربية، وأكثر ما كان ذلك في ألفاظ النباتات والحيوانات والبلدان والآلات والأمراض، والمأكّل التي لم يكونوا يعرفونها

من قبل، لتخرج العربية في النهاية من هذا المأزق التواصلية الحضاري سليمةً قويةً واسعة، لغة الدين والعلم والفلسفة والأدب⁽¹³⁾.

وكان من التقاليد الشائعة في الهند، وإلى عهد قريب؛ أن بداية تعليم القراءة والكتابة تتم على يد عالم الدين المسلم، حتى للأطفال غير المسلمين، وكان من الطبيعي أن يتعلم الأطفال اللغتين العربية والفارسية، مما أوجد جيل -مسلمين وغير مسلمين- يتقن العربية والفارسية، ومن خلالها انتقل مخزون الكلمات من العربية والفارسية إلى اللغات الهندية الثلاث: الهندية والأردية والتاميلية⁽¹⁴⁾.

لقد كان تمدد العربية عالمياً مثيراً ومدهشاً، وكما يقول المستشرق رينان: إن انتشار اللغة العربية؛ ليُعتبر من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، كما يعتبر من أصعب الأمور التي استعصى حلها، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدت فجأة على غاية من الكمال، فليس لها طفولة أو شيخوخة؛ ظهرت أول أمرها تامة مستحكمة، ولا أدري هل وقع ذلك للغة من لغات الأرض، قبل أن تدخل في أدوار مختلفة، فإن العربية بلا جدال قد عمّت أجزاء كبرى من العالم⁽¹⁵⁾.

إن هذا التأثير متوقع، وقائم، ولا يقتصر على الحضارة الإسلامية ولا القرون الوسطى، بل هو قائم إلى عصرنا، ويكفي أن نرى حياتنا المعاصرة، وما ننطقه على ألسنتنا، فسنجد مئات الألفاظ من اللغات الأوروبية، ناهيك عن الاختراعات والأجهزة، ومصطلحات العلوم والفنون، فتأثير الحضارات قائم وحادث، بل هو من لوازم الحياة الإنسانية، بأن تغزو الحضارة القوية الشعوب الأقل والأضعف ثقافياً وعلمياً، ولكن الفارق أن الحضارة الغربية لم تعرف إلا الهيمنة والتسلط ونهب الموارد واستعباد الشعوب، بدعوى نشر حضارتها، والتي كانت في حقيقتها احتلالاً عسكرياً، وقهراً سياسياً، وإبادة عنصرية، أما الحضارة الإسلامية، ففي اتصالها مع الحضارات الأخرى، لم تعرف هذا القيم، وإنما نشرت قيماً سامية، على نحو ما يسهب سعيد عاشور مستشهداً بمقولة المستشرق جيوم الذي يقول: "سوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوروبية؛ أن تأثير العرب الخالد في العصور الوسطى؛ كان أجلّ شأنًا، وأكبر خطراً مما عرفناه حتى اليوم". والمعروف أن المثل العليا للتربية الأخلاقية عند العرب، هي الشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروءة، والكرم وحسن الضيافة، ومساعدة الناس والأرامل والوفاء بالعهود⁽¹⁶⁾.

وقد كان للفروسية العربية خصال عشرة لا يكون المرء فارساً إلا بالاتصاف بها، وهي مستمدة من تقاليد العرب في الجاهلية، وزادها الإسلام رفعة سموها، ألا وهي: التقوى، والشجاعة، ورقة الشمايل، والقرينة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف، والرمح والنشاب، ويضاف لها عدم إهانة المرأة أو قتالها، أو اغتصابها. أما الفروسية الغربية فعنوانها الخشونة والجفاء واحتقار المرأة، والإفراط في الانتقام والتعذيب⁽¹⁷⁾.

وهي قيم ارتبطت بالأخلاق العربية في الجاهلية، ثم بأخلاق الإسلام وتربيته للمسلمين، فلم يعرف المسلمون يوماً الهيمنة والقهر والتسلط، في فتوحاتهم على غرار الاستعمار الغربي، وإنما تعاملوا مع الشعوب الأخرى برقي عال. وهنا نؤكد على التواصل الحضاري والثقافي وما استتبعه من تأثير لغوي وأخلاقي. وكما يقول غوستاف لوبون: تخلص النصارى من همجيتهم بفضل اتصافهم بالعرب، واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة، ومبادئ فروسياتهم، التي منها مراعاة النساء والشيوخ والأولاد، واحترام العهود، والوفاء بالوعود⁽¹⁸⁾. وكل ذلك كان على قاعدة من التسامح العظيم، واحترام الشعوب الأخرى وإنسانيتهما، وثقافتها، لذا أقبلت هذه الشعوب على حضارة الإسلام، ولغته، وعلومه، وهذا منذ بداية الفتوحات، فالحس الأخلاقي العالي كان مواكبا لحركة جيوش الفاتحين منذ البدء، ثم تسامحهم الديني⁽¹⁹⁾، مما كان له أكبر الأثر في نشر الإسلام وحضارته وقبوله من قبل شعوب الأرض، وسيادة النموذج الحضاري الإسلامي.

جانب آخر يشير إليه المستشرق بريفولت بقوله: "على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي، إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون؛ في نشأة تلك الطاقة، التي تكون ما للعالم الحديث، من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي"⁽²⁰⁾.

وهي روح التفكير الحر، والبحث العلمي النزيه، والأمانة العلمية الموضوعية، التي تعترف بأثر الحضارات السابقة، ودور كل عالم أو إسهامه العلمي، دون غمط أو تجاهل أو احتقار.

وإذا كانت هناك في الحضارة الإسلامية مراكز لنقل المعارف والعلوم من الحضارات القديمة، فإن هناك مدناً إسلامية كانت جسوراً لغوية وحضارية، لنقل علوم العرب والمسلمين إلى أوروبا،

وبعضها كانت مدنا على تخوم العالم الإسلامي، وكانت منها مدينة طليطلة في الأندلس، وقد قصدها طلاب أوروبيون، وقام ملكها ألفونسو السادس (بعد سقوط الأندلس) بإنشاء معهد المترجمين الطليطليين. وفي عهد ألفونسو العاشر تم إنشاء معهد للدراسات الإسلامية بمساعدة فيلسوف مسلم أندلسي. ثم نقل ألفونسو هذا الفيلسوف ليدرس في إشبيلية، كما أمر بترجمة القرآن وكليلة ودمنة. أما جزيرة صقلية فقد احتضنت في عهد النورمان مراكز للترجمة والتدريس، عملت على نقل علوم العربية إلى اللاتينية، وكان ملوك صقلية يعرفون اللغة العربية قراءة وكتابة، ويطلعون على الترجمات اللاتينية لكتب العربية في العلوم الطبيعية. وفي فرنسا، اشتهرت مراكز للترجمة، في مدن مرسيليا وتولوز وناربونة ومونبلييه، والأخيرة اشتملت على مركز لعلوم الفلك والطب والترجمة⁽²¹⁾.

ولم تكن حركة الترجمة الأوروبية لعلوم المسلمين بريئة في أغراضها، وقد ابتعدت في أزمنة كثيرة عن الروح العلمية والأمانة المعرفية، فالكنسيون كانوا يترجمون الكتب الإسلامية (الشرعية) للرد على المسلمين ومجادلتهم، ورجال الدولة وضباط الجيش اهتموا بكتب الجغرافيا والرحلات لمعرفة تضاريس العالم الإسلامي، رغبة في الهيمنة واستعمار العالم الإسلامي. وقد حرص بعض المترجمين الأوروبيين على عدم ذكر المؤلفين العرب على الكتب المترجمة حقدا، فمنهم من وضع اسمه على الكتاب المترجم، ومنهم من جعله مجهول المؤلف، وبعضهم حرّفوا التعاليم الإسلامية في الكتب المترجمة، تحريضا على معاداة الإسلام. وهناك طلاب وعلماء أوروبيون مستقلون تلقوا العلم العربي بشغف وحب، وسعوا لنشره في أوروبا، علما بأن الكنيسة في القرون الوسطى حاربت الفلسفة، والكتب العربية الفلسفية، وعدّها لونا من الهرطقة⁽²²⁾، قبل مرحلة فصل الكنيسة عن الحياة.

وإذا كانت اللغة العربية كانت لغة حضارية ثرية، وعظيمة، وراسخة، فإن هذا التراث كان سببا في مقاومتها المد الاستعماري في العصر الحديث، وصمودها إزاء المحجمات العنيفة المنظمة التي صوّبت سهامها نحوها، ويعود هذا - كما يذكر صبحي الصالح - إلى كون العربية من أقدم اللغات، وأقواها أصالة، وأوسعها تعبيرا، عن طريق تميزها بالتأثيل والترسييس. والمفهوم الأول (التأثيل)، مقصود به علم أصول الألفاظ، والمصطلح مشتق من الأثل، بمعنى الأصل، أما المفهوم الثاني (الترسييس)، فهو رد الألفاظ إلى بدايتها، وهو مشتق من الرس، بمعنى البداية. ومن الحقائق اللغوية الثابتة أن العربية

أقرضت سائر اللغات أكثر مما اقترضت هي منها، فما اقتبسته العربية من مختلف اللغات، لا يتجاوز ثلاثة آلاف كلمة على أكبر الاحتمالات، على حين دخل تلك اللغات من العربية وغيرها شيء كثير؛ لم يحصه حتى اليوم الراسخون في العلم⁽²³⁾.

والعربية بوصفها لغة حضارية، مرت بتجربة تاريخية ضخمة، أبرزت طواغيتها للاكتشاف والتوليد، وفي استطاعتها - كما ثبت حديثاً - أن تواكب النماء الحضاري، فهي ما تنفك قادرة على اختراع التعابير الحية لجميع الفنون والعلوم. وهذا لا يعني أنها تراجعت في العصر الحديث، بعد المد الاستعماري الذي ضرب أقطار العروبة والإسلام، وبطء حركة التعريب، ومنافسة اللهجات العامية لها، وافتقارنا إلى حد كبير لمراجع علمية عربية في مختلف العلوم العصرية والفنون الجديدة، والمراجع المتوافرة لا يتم تحديثها بشكل دائم. فمن المسلم به في الدراسات الحضارية أن اللغة عنصر علمي مستقل. وتبدو استقلالية اللغة - بدرجة كبيرة - في العلوم الطبيعية، مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والجغرافيا، بوصفها علومًا لا خلاف على أثرها في التقدم العلمي والحضاري بين البشر، وإن كان الأمر ليس على إطلاقه. فالعلوم الطبيعية وما يرتبط بها من اختراعات وتقنيات مفيدة لعامة البشر، إلا أنها تحمل الكثير من الخلفيات الحضارية والثقافية، التي تظهر في صياغة المصطلحات والمفاهيم، واللغات الأصلية التي تكتب بها، ودورها في رفع شأن حضارة ما، والترويج لقيمها وشعاراتها، أما العلوم الإنسانية، فترتبط بالهوية الحضارية، وتتصل بالفكر والثقافة؛ واللغة المعبر بها تقع في القلب منها، ولا بد من دراستها لأي باحث يرغب في فهم الحضارة المستهدفة بشكل موثق. فمن أراد معرفة حضارة اليونان وثقافتهم بشكل جدي، وبفهم أعمق، فعليه إجادة اليونانية، خاصة للمختصين في العلوم أو التاريخ اليوناني بشكل مباشر.

واللغة أيضاً ظاهرة اجتماعية، وعامل حضاري، ومن الثابت تاريخياً أن العربية كان لها دور هائل في التعبير عن الكشف العلمية، ولها مقدرتها الذاتية على التعبير الفني الدقيق، فهي تحتاج إلى استنهاض هم العلماء العرب المعاصرين⁽²⁴⁾، من أجل تعريب المصطلحات والرموز العلمية، على أن نكون واعين بأنها قضية حضارية وليست ترفاً علمياً.

فالأمر يرتبط هنا بمسألة الهوية الحضارية وإعادة بناء النموذج الحضاري، وتعود اللغة العربية فيه لتكون لغة العلم والتعلم، والبحث والتأليف، والمخترعات، نسترشد في ذلك بواقع الحضارة

الإسلامية في عصرها الذهبي، وقد عاشت أكثر من عشرة قرون، تسيدت فيه الأرض، وكانت مراكزها الحضارية نبراسا لشعوب العالم، ونحن نقصد هنا المنجز الحضاري، وليس التاريخ السياسي، بما فيه من صراعات؛ معلوم أنها من نواتج السياسة وأهوائها، وذلك واقع في كل حضارات العالم ودوله وأممها قاطبة. مع الأخذ في الحسبان فترات القوة والاستقرار السياسي في العصور الإسلامية، وشخصيات الخلفاء والسلاطين والملوك العظام. وبعبارة أخرى، من المهم دراسة المنجز الحضاري الإسلامي: علومنا وفنوننا وإبداعاتنا، واللغة العربية منه في القلب، لنجيب عن سؤال: كيف كنا متميزين، وكيف يمكن أن نعيد أمجادنا؟

يفصل عبد الحليم عويس سمات الحضارة الإسلامية بأنها حضارة إنسانية متعاونة، لا تعرف استعلاء ولا تجبرا، ولا نخبا أو احتلالا، وأنها أقامت حوارية كاملة مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها، وأن الوسطية كانت سمة لها، في رسالتها الدينية، وفي خطابها الإنساني، حيث أعلنت احترامها للإنسان وللكرامة الإنسانية، ونشرت في سبيل ذلك منظومة قيم وأخلاق سامية⁽²⁵⁾. فلا يمكن أن تستعيد اللغة العربية مكانتها العالمية، إلا بعودة الأسباب التي جعلتها تتبوأها، ألا وهي تفعيل عوامل الصعود الحضاري، التي اتخذت العربية لغة معتمدة لها.

الخاتمة، ونتائج البحث: في نهاية هذه الدراسة، نخلص بثلاث نتائج:

- إن سبب انتشار اللغة العربية في أنحاء العالم، في القرون الوسطى، يعود إلى سيادة النموذج الحضاري الإسلامي، وهي سيادة لم تتأت بسبب احتلال عسكري، أو قهر سياسي، أو هيمنة وتبعية، وإنما لما تميّزت به الحضارة الإسلامية من سمو أخلاقي، ورفعة قيمية، واختزنتها شعوب الأقاليم المفتوحة في ذاكرتها الجمعية، وهم يقارنون بينهم وبين أحوالهم تحت حكم كسرى في فارس، أو قيصر في الروم، أو ملوك أوروبا وإقطاعيها. وقد جاء انتشار العربية بالنظر إلى كونها لغة الحضارة الإسلامية الأساسية، علما بأن هناك لغات أخرى، ضمن إطار الحضارة الإسلامية، كُتبت بأحرف عربية، وكانت رديفة للفصحى، بعدما امتاحت منها كثيرا من المفردات والمصطلحات، مثل الفارسية والتركية.

- إن الأدوار الحضارية للعربية الفصحى تتمثل في كونها لغة العلوم والفنون والآداب، ثم هي اللغة التي حملت أبرز الكتب المترجمة عن الحضارات السابقة، وتضافر علماء المسلمين على شرح هذه الكتب، مثل شروح مؤلفات أرسطو، ثم هي اللغة التي كانت جسرا حضاريا لحضارة أوروبا.

- من المهم النظر في السياقات الحضارية والتاريخية للغة العربية، ونحن نروم دراسة تاريخ العربية، فلا يمكن فهم تطور العربية لغويا وثقافيا وحضاريا، إلا بفهم مجمل السياقات الزمنية والثقافية والحضارية التي صاحبت هذا، وهي لا يعني إهمالنا النظر الجزئي، والدراسات الفرعية، وإنما المستهدف تقديم رؤية إجمالية، تأخذ أبعادا سياسية ودينية وثقافية واجتماعية، جنبا إلى جنب مع الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي، الذي مكّنه من الاطلاع ثم حفظ علوم الحضارات السابقة، ثم البناء عليها، وبعد ذلك نقلها إلى حضارات الأرض المعاصرة له تاريخيا، أو اللاحقة عليه زمنيا، لتستمر مسيرة الحضارة الإنسانية، عبر نقل مشاعلها بين الأمم.

أهم المراجع:

- تأثير اللغة العربية في لغات الهند، د. سيد محمد منور نينار، ترجمة: قاضي عبد الرشيد الندوي، منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2011م.
- التقنية في الحضارة الإسلامية، د. أحمد الحسن، د. دونالد هيل، ترجمة: د. صالح خالد ساري، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 2001م.
- الترجمة في العصور الوسطى، د. محمد عباسة، بحث منشور في مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد (5)، 2006م.
- التعدد اللغوي والوعي الحضاري، بين الرغبة في المعرفة وهاجس الاستلاب، د. بشير خليف، بحث منشور في مجلة العلوم الاجتماعية، الجزائر، العدد (24)، يونيو 2017م.
- حرب اللغات والسياسة اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة: د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م.
- الحضارة الإسلامية: إبداع الماضي وآفاق المستقبل، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010م.

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م.

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م.

- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، 2009م

- شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا، زغيريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الجيل-بيروت، دار الآفاق الجديدة-بيروت، ط8، 1993م

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، 1423هـ، 2004م.

- اللغة العربية لغة عالمية، مراد كامل، دار المعارف، مصر، 1976م.

- المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1963م

¹ التعدد اللغوي والوعي الحضاري، بين الرغبة في المعرفة وهاجس الاستلاب، د. بشير خليفي، بحث منشور في مجلة العلوم الاجتماعية، الجزائر، العدد (24)، يونيو 2017م، ص66.

² فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، 1423هـ، 2004م، ص1131.

³ التعدد اللغوي والوعي الحضاري، بين الرغبة في المعرفة وهاجس الاستلاب، ص68.

⁴ حرب اللغات والسياسة اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة: د. حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م، ص278.

- ⁵ (التعدد اللغوي والوعي الحضاري، بين الرغبة في المعرفة وهاجس الاستلاب، ص68.
- ⁶ (حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م، ص456.
- ⁷ (المرجع السابق، ص458.
- ⁸ (شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيبضون، كمال دسوقي، دار الجيل-بيروت، دار الآفاق الجديدة-بيروت، ط8، 1993م، ص71، 74.
- ⁹ (اللغة العربية لغة عالمية، مراد كامل، دار المعارف، مصر، 1976م، ص98. ومن هذه المفردات: Aceite الزيت، barcar (el estanque la charca أحاطب، احتوى على، Abatanar بطن، Abencerrajes بني سراج، Acatar قدر، caudillar قاد-قيادة، Acechar (esconderse أتربق، كمن، تستر. Adoquín الدكان، حجر الرصيف، Aduanaالديوان، جمرک، Ajarafe الشرف.
- ¹⁰ (حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص457، 458.
- ¹¹ (التقنية في الحضارة الإسلامية، د. أحمد الحسن، د. دونالد هيل، ترجمة: د. صالح خالد ساري، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 2001م، ص69.
- ¹² (شمس العرب تسطع على الغرب، ص20.
- ¹³ (تأثير اللغة العربية في لغات الهند، د. سيد محمد منور نينار، ترجمة: قاضي عبد الرشيد الندوي، منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2011م، ص13، 14.
- ¹⁴ (المرجع السابق، ص35. وقد أدرج المؤلف جداول مطولة جدا عن الكلمات العربية التي دخلت في اللغات الهندية، توضح عظم التأثير الثقافي والحضاري للعربية فيها.
- ¹⁵ (المرجع السابق، ص6 (المقدمة).
- ¹⁶ (المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1963م، ص205، 206.
- ¹⁷ (المرجع السابق، ص208. ومن المواقف المتداولة في كتب التاريخ الغربية ما فعله القائد القمبياطور El-Cambeador، والذي تفاخر به الغرب في قتاله للعرب في الأندلس، وللأسف فإن سيرته زاخرة بنقض العهود والنهب والسرقة والغدر، وقد استولى على مدينة بلنسية صلحا، فقام بشي

ملكة المدينة العجوز على النار، حتى تبوح بالكنوز المخبوءة في قصرها. بعكس ما فعله والي قرطبة المسلم، الذي حاصر مدينة طليطلة، سنة 1139، فأرسلت إليه ملكة المدينة بيرانجيز؛ أنه ليس من الشجاعة والشرف وكرم الأخلاق أن يقوم فارس عربي بحصار امرأة، فارتد القائد فوراً، وأبى أن يتم عمله الحربي. انظر: المرجع السابق، ص209.

¹⁸ حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص597.

¹⁹ ظل أهل الشام مسيحيين حتى القرن الثالث الهجري، وكان هناك أحد عشر ألف كنيسة في عهد الخليفة المأمون في الأقطار المفتوحة، وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، وحجاجهم من الشرق أو الغرب يأتون آمنين لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وقبل ذلك كان المسيحيون الخارجون على الكنيسة الشرقية يلقون العنت في الشام ومصر. المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص206، 207.

²⁰ المرجع السابق، ص206.

²¹ الترجمة في العصور الوسطى، د. محمد عباسة، ص9-12.

²² المرجع السابق، ص13، 14.

²³ دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، 2009م، ص347، 348.

²⁴ المرجع السابق، ص351.

²⁵ الحضارة الإسلامية: إبداع الماضي وآفاق المستقبل، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010م، ص299-302.